مجلة الشهاب • المجلد: 08، العدد: 03 (2022م) • ص ص 451 - 468
(ISSN: 2477-9954, EISSN: 2602-5485)



أثر العقيدة في ممارسة الشعائر الدينية

The impact of belief on the practice of religious rites

د/ التركي باهي*
جامعة تبسة (الجزائر)
torkibahi@yahoo.fr / torki.bahi@univ-tebessa.dz

تاريخ الاستلام: 2022/07/18 | تاريخ القبول: 2022/09/19 | تاريخ النشر: 2022/11/12



ملخص: بالنظر إلى مختلف الاهتمامات لدى الباحثين يمكننا ملاحظة مدى أهمية العقيدة عموما والتوحيد خصوصا وبعدها الأخلاقي، حيث من خلالها يمكن معرفة العلاقة بين الممارسات الدينية وبعدها العقدي، الذي يعتبر أساس تلك السلوكيات الدينية التي تأخذ طابعا عاما في المجتمعات، فالتوحيد مثلا كمعتقد يعتبر أصلا من الأصول، وخاصة في المجتمعات الإسلامية، حيث يعكس جانبا من السلوكيات الأخلاقية في ممارسة الشعائر الدينية، بخلاف بعض المجتمعات الأخرى، لذلك هناك علاقة تأثير بين البعد العقائدي للممارسات الدينية بكل أبعادها والبعد السلوكي لها.

الكلمات المفتاحية: العقيدة؛ التوحيد؛ الشعائر؛ الممارسة؛ الأخلاق.

Abstract: Looking at the various interests of researchers, we can note the importance of belief in general and monotheism in particular and its moral dimension, through which the identification of the relationship between religious practices and its doctrinal dimension, which is considered the basis of those religious behaviors that take a general character in societies. In Islamic societies, where it reflects an aspect of moral behavior in the practice of religious rites, unlike some other societies, there is an influence relationship between the ideological dimension of religious practices in all its dimensions and the behavioral dimension. Monotheism, for example, as a belief is deep-rooted in Islamic societies, as it reflects an aspect of moral behaviors in practicing the religious rites, unlike some other societies. Hence, so there is an influence relationship between the doctrinaire dimension of religious practices in all their dimensions and its behavioral dimension.

Keywords: creed; Monotheism ; rites; practice; Moral.

1. مقدمة

يتأثر السلوك الإنساني بطبيعة الشخصية ومكوناتها، وهو محصلة للظروف الاجتماعية والبيئية والتوجهات الدينية التي تحيط بالإنسان، وفي نفس الوقت يحتاج السلوك الإنساني إلى ضوابط تضبطه سواء كانت هذه الأخيرة دينية أو أخلاقية أو اجتماعية ليتوافق سلوكه مع الوسط المعاش، وفهم التفاعلات بين الجوانب المختلفة من الحياة التي تؤثر ويتأثر بها السلوك الإنساني، لذا فإن دراسة السلوك الإنساني

* المؤلف المراسل.

أصبح أساسيا للتعرف أكثر على طبيعة الإنسان، وأيضا ليسهل عليه معرفة التحديات والمتطلبات والمناهج والطرق التي تجعله يفلح في الدارين.

1.1. أهمية البحث:

إن أهمية هذا البحث تكمن في تناوله لموضوع التوحيد الذي يتوقف عليه حصول كل مقصود في هذا الوجود، وتزداد الأهمية عندا يتعلق بالغاية الجوهرية من هذا التوحيد، وبخاصة إذا تعلق الأمر بالشعائر التعبدية التي تقوم عليه بالأساس، ومن هذا المنطلق فإن البحث يجلي الجوانب الواجب معرفتها لأهل التوحيد الذين يرغبون بلوغ أعلى المراتب في عباداتهم جوهرا ومظهرا، وهذا من ابرز أهداف هذا البحث، بالإضافة إلى أهداف أخرى قريبة وبعيدة نروم تحقيقها، كتصحيح التصورات وتصويب الفهوم وغيرها من الغايات، واعتمدنا في عرض الموضوع على المنهج المقارن لكونه الأنسب في تقديرنا لكثرة النقول واستعمال الترجمة الأجنبية في المصطلحات المخصصة للموضوع .

2.1. إشكالية البحث

إن التوحيد هو مقصود كل الشرائع على تعاقب الرسل وكثرة الكتب المنزلة، وجاء ليهدم الخرافة والوهم بالحجة والعلم والمنطق، لأنه يجسّد القوة العقلية والقوة الوجدانية للنفس الإنسانية، وعلى هذا الأساس، تكمن إشكالية هذا البحث في إبراز الأسس النظرية للسلوك الإنساني التي يمكن اعتبارها من ثمار التوحيد، وما يترتب على ذلك من تحقيق الحياة الفاضلة الكريمة التي تحترم فيها الحقوق وتؤدى الواجبات على أكمل وجه، باكتساب الأخلاق وبناء الضمير الخلقي والانضباط في الشخصية وإثارة التنافس على الخير وتعزيز قيمة المساواة بين الأفراد وتحقيق الأمن الاجتماعي.

2. السلوك الإنساني

إن الحديث عن السلوك الإنساني يفرض علينا إيضاح مفهوم السلوك الذي هو:

أي استجابة أو رد فعل للفرد، لا يتضمن فقط الاستجابات والحركات الجسمية بل يشتمل على العبارات اللفظية والخبرات الذاتية[1] والتجارب السابقة[2]، وعلى الرغم من أن بعض الباحثين يستخدمون مصطلحي فعل وسلوك بمعنى واحد، إلا أن اصطلاح السلوك أعم من الفعل، لأنه يشتمل على كل ما يمارسه الفرد ويفكر فيه ويشعر به، بغض النظر عن القصد والمعنى الذي ينطوي عليه السلوك بالنسبة للفرد[3].

أما السلوك بمعناه الاصطلاحي العام، فيعبّر عنه في السنّة النبوية - وكذلك في القرآن الكريم- "بمصطلح "العمل"، ويقصد به جميع الأفعال أو الاستجابات أو ردود الفعل التي تصدر عن الإنسان، سواءً كانت ظاهرية أم باطنية، وسواء كانت الأعمال صالحة أوغير صالحة". قال الراغب: "العمل: كل فعل يكون بقصد...، والعمل يُسْتعمل في الأعمال الصالحة والسيئة، قال الله تعالى ﴿وَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتَ﴾ (سورة النساء:الآية 124)، وقال الله تعالى: ﴿مَن يَعْمَلْ سُوءاً يُجْزَ بِهِ﴾ (سورة النساء: الآية 123)، بذلك يظهر معنى

"السلوك" في السُنّة، بأنه: كل ما يصدر عن الإنسان من أعمال وأقوال، ظاهرة وباطنة، وعليه فالسلوك في السُنّة، قسمان: السلوك الظاهري، ويشمل كل الأعمال والأقوال الظاهرة التي تصدر عن جوارح الإنسان، وأما السلوك الباطني، فيشمل كل العمليات والاعتقادات والانفعالات التي تصدر عن قلب الإنسان وباطنه4.

إن علماء الإسلام ينظرون إلى السلوك على أنه متميز ومتنوع، فنجد الغزالي قد ميّز بين ثلاثة أنواع من السلوك وهي[5]:

الفعل الطبيعي: وهو مجرد التغيير الآلي، وذلك كانحراف الماء إذا وقف الإنسان فيه بجسمه.

الفعل الضروري: وهو التغيير الحيوي البيولوجي والآلي وذلك كالرعد أو النفس وهو يعطي هذا الفعل أحيانا الصفة الإرادية ولكنه ينزعها عنه غالبا فيبين أنه في الواقع ليس إلا سلوكا آليا لا إرادة أو عقل فيه ويشرح ذلك بقوله: (... لو قصد عين الإنسان بإبرة طبق الأجفان اضطرارا ولو أراد أن يتركها مفتوحة لم يقدر مع أن تغميض الأجفان اضطرارا فعل إرادي ولكنه إذا تمثل صورة الإبرة في مشاهدته بالإدراك حدثت الإرادة بالتغميض ضرورة وحدثت الحركة بها ولو أراد أن يترك ذلك لم يقدر عليه مع أنه فعل بالقدرة والإرادة فقد التحق هذا بالفعل الطبيعي في كونه ضروريا ...).

وأما الثالث وهو الاختيار فهو مظنة الالتباس كالكتابة والنطق وهو الذي يقال فيه إن شاء فعل وإن شاء لم يفعل وتارة لا يشاء فيظن من هذا أن الأمر إليه وهذا للجهل بمعنى الاختيار.

وكذلك نجد ابن تيمية رحمة الله عليه يقسم السلوك أو الحركة إلى ثلاثة أنواع[6]:

الحركة القسرية: وهي التي مبدؤها من غير التحرك، أي التابعة للقاسر كصعود الحجر إلى فوق فهذه الحركة القسرية.

الحركة الطبيعية: وهي التي مبدؤها من المتحرك ولكن دون شعور منه، فالحركة الطبيعية التي تطلب بها العين العود إلى مركزها لخروجها عن المركز، فإن تلك حركة بالعرض والعقلاء متفقون على ما كان من الأعيان قابلا للحركة فهو أشرف مما لا يقبلها، وما كان قابلا للحركة بالذات فهو أعلى مما لا يقبلها بالعرض، وما كان متحركا بنفسه كان أكمل من الموات الذي تحركه بغيره.

الحركة الإرادية: وهي التي مبدؤها من المتحرك وبشعور منه ويتضح هذا إما أن يكون مبدأها من المتحرك وإما من غيره، فما كان مبدؤها من غيره فهي القسرية الكرهية، وما كان مبدؤها من المتحرك، فإن كان على شعور منه فهي الإرادية وإلا فهي الطبيعية، والطبيعية لا تعرف إلا إذا خرج المطبوع عن مركزه، كصعود الحجر والماء إلى فوق، ففي طبعه الهوي والنزول فهي تابعة للقسرية، فكل من الطبيعية والقسرية تابعة لغيرها، فمبدأ الحركات كلها هي الإرادية، وكل إرادة لا يكون الله هو المراد المقصود بالقصد الأول بها كانت ضارة لصاحبها مفسدة له غير نافعة ولا مصلحة له.

ويوضح الدكتور فهمي النجار نقاط الاتفاق والاختلاف بين الغزالي وابن تيمية، ويبين أنهم يؤكدون أن

للسلوك دوافعا وبواعث وغايات وأهدافا، وأن هذه الدوافع داخلية تنبع من ذات الإنسان، إلا أنها تستثار بمميزات خارجية أو بمثيرات داخلية تتعلق بالحاجات الجسدية والميول الطبيعية، مثل الجوع والميل الجنسي والخوف من الله والمحبة وغير ذلك، وهكذا نجد أن السلوك عند الغزالي وابن تيمية حركة لها هدف وليس سلوكا ساكنا من نوع الذي حددته بعض المدارس السلوكية الارتباطية فالمذاهب السلوكية ترى أن الكائن الحي ما هو إلا آلة معقدة، وتدرس سلوكه كما تدرس آلة لا عقل لها ولا شعور، أما العوامل النفسية الباطنية كالإرادة والرغبة والتفكير فلا أثر لها في العقل أو النتائج، وبعبارة أخرى فالكائن الحي لا تحركه عوامل داخلية بل منبهات خارجية، والغزالي يؤكد التصور الإسلامي في الإنسان من حيث إمكانية تعديل سلوكه أو تهذيبه أو السمو به في مجال الأخلاق ليصل بالإنسان إلى ما يرضي الله تعالى، لذلك كان تعريف السلوك عنده بأنه تهذيب الأخلاق والأعمال بالمعارف عن طريق الاشتغال بعمارة الظاهر والباطن، لذا فإن السلوك الإنساني عنده على مستويين: مستوى يقترب فيه من باقي الكائنات الحية، ومستوى آخر يحقق فيه مثله العليا ويقترب فيه من المعاني الربانية والسلوك الملائكي، ويتميز المستوى الأول بتحكم الدوافع والعوامل الاندفاعية ، بينما يتميز السلوك الثاني بتحكم الإرادة وسيطرة العقل[7].

3. مرجعيات السلوك (Behavior sources)

1.3. المرجع الاعتقادي (Belief source)

إن أثر العقيدة القوي والفعال والمستمر في الطبيعة الإنسانية، وما يصدر عن الإنسان من نشاط وسلوك، يحدث تغيّرا جذريا في سلوكه، فالفرد إذا آمن بعقيدة ما ظهر أثر ذلك الإيمان في كل قول من أقواله وعمل من أعماله، هذا إلى جانب سلطان العقيدة القوي على الفكر والإرادة، حيث تحدد للفكر وجهته وتعين له الوسائل لتحقيق أهدافه وتدفع صاحبها إلى فعل ما يتلاءم معها، بالإضافة إلى أثر اعتقاد الفرد في إشباع حاجات فطرية لديه تتمثل في الولاء لفكرة أو لعقيدة ما، فالإنسان مفطور بطبيعته على اتخاذ عقيدة دينية، وهو يولد مزودا بالاستعداد لذلك، ومنذ وجد الإنسان على الأرض وهو يحس حاجة إلى الارتباط بقوة عليا خارجة عن ذاته تحميه ويجد في كنفها الأمن والاطمئنان[8].

فالعقيدة هي مجموعة من قضايا الحق البديهية المسلمة بالعقل والسمع والفطرة يعقد عليها الإنسان قلبه ويثني عليها صدره جازما بصحتها قاطعا بوجودها وثبوتها لا يرى خلافها أنه يصح أو يكون أبدا[9].

ولقد حدد الإسلام الدور الذي يجب أن يقوم به العقل في مجال العقيدة، ولقد دعا القران الكريم والسنة الشريفة دعوة ملحة متكررة إلى استعمال العقل في مجال العقيدة اتخذت تلك الذروة مسلكين مسلكا نظريا ومسلكا عمليا[10].

ويرى سعيد حوى أن العبودية لله تعالى تتمثل في التصور الاعتقادي الذي هو التصور الذي ينشأ في الإدراك البشري من تلقيه لحقائق العقيدة من مصدرها الرباني والذي يتكيف به الإنسان في معرفة ربه ولحقيقة الكون الذي يعيش فيه غيبه وشهوده، ولحقيقة الحياة التي ينتسب إليها غيبها وشهودها ولحقيقة

نفسه، أي لحقيقة الإنسان ذاته.. ثم يكيف على أساسه تعامله مع ربه تعاملا تتمثل فيه العبودية لله تعالى وحده وتعامله مع الكون ونواميسه، ومع الأحياء وعواملها، ومع أفراد النوع البشري وتشكيلاته، تعاملا يستمد أصوله من دين الله تعالى كما بلّغه رسوله الكريم ﷺ تحقيقا لعبودية الله تعالى وحده في هذا التعامل، وهو بهذه الصورة يشمل نشاط الحياة كلها، فالمجتمع لا يقوم حتى تنشأ جماعة من الناس تقرر أن عبوديتها الكاملة لله تعالى وحده، وأنها لا تدين بالعبودية لغير الله تعالى في الاعتقاد والتصور، ولا تدين بالعبودية لغير الله تعالى في العبادات والشعائر، ولا تدين بالعبودية لغير الله تعالى في النظام والشرائع، ثم تأخذ بالفعل وتنفي شرائعها من التلقي عن أخذ غير الله تعالى معه أومن دونه عندئذ، وعندئذ فقط تكون هذه الجماعة مسلمة، ويكون هذا المجتمع الذي أقامته مسلما كذلك، فأما قبل أن يقرر نفر من الناس إخلاص عبوديتهم لله تعالى، وأما قبل أن ينظموا حياتهم على هذا الأساس، فلا يكون مجتمعهم مسلما، وذلك أن القاعدة الأولى التي يقوم عليها الإسلام والتي يقوم عليها المجتمع المسلم وهي شهادة ألا إله إلا الله وأن محمد رسول الله لم تقم بشرطها، وإذن فإنه قبل التفكير في إقامة نظام اجتماعي إسلامي ولإقامة مجتمع مسلم على أساس هذا النظام، ينبغي أن يتجه الاهتمام أولا إلى تخليص ضمائر الأفراد من العبودية لغير الله تعالى وأن يتجمع الأفراد الذين تخلصت ضمائر أفرادها من العبودية لغير الله تعالى في جماعة مسلمة، وهذه الجماعة التي خلصت ضمائر أفرادها من العبودية لغير الله تعالى اعتقادا وعبادة وشريعة، هي التي ينشأ منها المجتمع المسلم، وينضم إليها من يريد أن يعيش في هذا المجتمع بعقيدته التوحيدية وعبادته التوحيدية وشريعته التوحيدية التي تتمثل فيها العبودية لله تعالى وحده، أو بتعبير آخر، تتمثل فيها شهادة أن ألا إله إلا الله وأن محمد رسول الله[11].

قال أبو عبد الله مصطفى بن العدوى[12]: إن الاعتقاد الصحيح يولد عملاً صحيحاً، وبالمقابل فإن الاعتقاد الفاسد يولد عملاً فاسداً، فإذا كان اعتقادك صحيحاً، وأنك تعتقد تماماً أنك مبعوث ليوم عظيم، فهذا الاعتقاد الصحيح يحملك على عمل صحيح، وهو عدم تطفيف الكيل، وعدم تطفيف الميزان، لكن إذا كنت لا تعتقد أن هناك بعثاً، فما هو المانع لك من الغش؟ ما هو المانع لك من السرقة؟ لا مانع إذاً من الغش ولا من السرقة -إذا كنت لا تعتقد أن هناك نشورًا- إلا سطوة البشر، لكن إذا خلوت وابتعدت من أعين البشر ليس هناك أي مانع من أن تختلس، ولذلك مقولة إخواننا الذين يقولون: إن الأوروبيين أكثر أماناً من المسلمين، هذه مقولة ضالة خاطئة، فهم وإن راقبوا البشر فلا يراقبون الله تعالى، فإذا تمكنوا من السرقة والاختلاس اختلسوا بلا شك، ولا حرج عندهم في ذلك، فالشاهد: أن الاعتقاد الصحيح يحملك على عمل صحيح، لذلك إذا اعتقدت اعتقاداً صحيحاً في الملائكة، وأنهم يراقبونك، عملت عملاً صالحاً حتى لا يروك على معصية الله.

في المقابل الاعتقاد الفاسد يولد عملاً فاسداً، ولذلك لما اعتقد بنو إسرائيل اعتقادات فاسدة، كاعتقادهم أن النار لن تمسهم إلا أياماً معدودات، قالوا: أذنبنا أم لم نذنب، ارتكبنا الكبائر أم لم نرتكب، فإننا معذبون سبعة أيام، وهي السبعة التي عبدنا فيها العجل، فهذا الاعتقاد الرديء السيئ حملهم على ماذا؟

على قتل الأنبياء، وقتل الذين يأمرون بالقسط من الناس، فذبحوا يحيى، وذبحوا زكريا عليهما السلام، قال الله سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ أُولَئِكَ الَّذِينَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ﴾ (سورة آل عمران:21،22)، إلى أن قال تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَاتٍ وَغَرَّهُمْ فِي دِينِهِمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ (سورة آل عمران:الآية 24)، فلذلك يقول العلماء: إن سلطان العلم والخشية من الله تعالى أقوى تأثيراً على القلب من سلطان السيوف، فإن السيوف على البدن تستطيع أن تتقيها بأي شيء، لكن الذي في القلب ثابت لا يتغير ولا يؤثر فيه إلا العلم والخشية من الله سبحانه وتعالى.

2.3. مرجع الإتباع (Imitation source)

يأتي توحيد المتبوع ﷺ بعد توحيد المعبود ـ عز وجل ـ فالإتباع شرط القبول الثاني بعد تجريد التوحيد والإخلاص قال الله تعالى: ﴿ فَمَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا ﴾ (سورة الكهف: الآية: 110)[13].

قال الرازي: إن الإتباع هو الإتيان بمثل فعل الغير لأجل أن ذلك الغير فعله[14]، وجاء في كتاب اقتضاء الصراط المستقيم لابن تيمية، الإتباع هو الاقتفاء والاستنان[15]، وحقيقة الإتباع تصديقه ﷺ فيما أخبر، وطاعته فيما أمر واجتناب ما عنه نهى وزجر وحذر، وألا يعارض الأمر والنهي بترخص جاف ولا بتشدد غال ولا يحمل على علة توهن الانقياد[16].

فيقول ابن تيمية: فلا فلاح إلا بإتباع الرسول ﷺ، فإن الله تعالى خصّ بالفلاح أتباعه المؤمنين وأنصارهم، كما قال الله تعالى: ﴿ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ (سورة الأعراف، الآية: 157)، أي لا مفلح إلا هم، كما قال الله تعالى: ﴿ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ (سورة آل عمران، الآية: 104)، فخص هؤلاء بالفلاح كما خص المتقين الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة وينفقون مما رزقهم ويؤمنون بما أنزل إلى رسوله ﷺ، وما أنزل من قبله ويوقنون بالآخرة وبالهدي والفلاح، فعلم بذلك أن الهدى والفلاح دائر حول ربع الرسالة وجودا وعدما، وهذا مما اتفقت عليه الكتب المنزلة من السماء، وبعث به جميع الرسل عليهم الصلاة والسلام، ولهذا قص الله تعالى علينا أخبار الأمم المكذبة للرسل وما صارت إليه عاقبتهم، وأبقى آثارهم وديارهم عبرة لمن بعدهم وموعظة، وكذلك مسخ من مسخ قردة وخنازير لمخالفتهم لأنبيائهم، وكذلك من خسف به وأرسل عليه الحجارة من السماء وأغرقه في اليم وأرسل عليه الصيحة وأخذه بأنواع العقوبات وإنما ذلك بسبب مخالفتهم للرسل وإعراضهم عما جاءوا به واتخاذهم أولياء من دونه[17].

وقال الثعالبي: فالصادق في حب النبي ﷺ من تظهر علامات ذلك عليه، وأولها الاقتداء به وإتباع سنته وإتباع أقواله وأفعاله والتأدب بآدابه في عسره ويسره، وأنه لا يمكن لأحد أن يرقى إلى هذه المنزلة من

الحب لله تعالى ورسوله إلا بتوحيد الله تعالى في عبادته دون سواه، وبإفراد النبي ﷺ بالإتباع دون غيره من عباد الله تعالى لقول الله تعالى: ﴿ مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ الله ﴾ (سورة النساء : الآية 80)، وقوله تعالى : ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ﴾ (سورة آل عمران: الآية: 31)، وقوله ﷺ: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَوْ أَنَّ مُوسَى كَانَ حَيًّا مَا وَسِعَهُ إِلاَ أَنْ يَتَّبِعَنِى» رواه أحمد، فإذا كان مثل موسى كليم الله ﷺ، لا يسعه أن يتبع غير النبي ﷺ فهل يسع ذلك غيره؟ فهذا من الأدلة القاطعة على وجوب إفراد النبي ﷺ بالإتباع، وهو من لوازم شهادة "أن محمدا رسول الله" ولذلك جعل الله تبارك وتعالى في الآية المتقدمة إتباعه ﷺ - دون سواه - دليلا على حب الله تعالى إياه، ومما لا شك فيه أن من أحبه الله تعالى، كان الله تعالى معه في كل شيء، كما في الحديث القدسي الصحيح «إِنَّ اللَّهَ قَالَ مَنْ عَادَى لِي وَلِيًّا فَقَدْ آذَنْتُهُ بِالْحَرْبِ وَمَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ عَبْدِي بِشَيْءٍ أَحَبَّ إِلَيَّ مِمَّا افْتَرَضْتُ عَلَيْهِ وَمَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى أُحِبَّهُ فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ وَبَصَرَهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ وَيَدَهُ الَّتِي يَبْطِشُ بِهَا وَرِجْلَهُ الَّتِي يَمْشِي بِهَا وَإِنْ سَأَلَنِي لَأُعْطِيَنَّهُ وَلَئِنْ اسْتَعَاذَنِي لَأُعِيذَنَّهُ» [رواه البخاري].[18]

ويقول الألباني: إذا كانت هذه العناية الإلهية إنما هي بعبده المحبوب من الله تعالى، كان واجبا على كل مسلم أن يتخذ السبب الذي يجعله محبوبا عند الله تعالى ألا وهو إتباع رسول الله ﷺ وحده دون سواه، وبذلك فقط يحظى بالعناية الخاصة من مولاه تبارك وتعالى، ألست ترى أنه لا سبيل إلى معرفة الفرائض وتميزها من النوافل إلا بإتباعه ﷺ وحده؟[19].

ويرى الألباني في كتابه التوسل أنواعه وأحكامه: فالحب الصادق إنما هو الإتباع وليس بالابتداع كما قال الله عز وجل: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ﴾ (سورة آل عمران: الآية 31) ومنه قول الشاعر:

تعصي الإله وأنت تظهر حبه   هذا لعمرك في القياس بديع

لو كان حبك صادقا لأطعته   إن المحب لمن يحب مطيع

ثم يسترسل ويقول: وأما الشرع فيقال: العبادات كلها مبناها على الإتباع لا على الابتداع، فليس لأحد أن يشرع من الدين ما لم يأذن به الله تعالى، فليس لأحد أن يصلي إلى قبره، ويقول هو أحق بالصلاة إليه من الكعبة، وقد ثبت عنه ﷺ في الصحيح أنه قال: (لا تجلسوا على القبور ولا تصلوا إليها) صحيحه الألباني.[20]

يقول أحمد بن إبراهيم: أن يكون إتباع رسول ﷺ في الأقوال والأعمال أي في السلوكيات والممارسات القولية والفعلية واجبة وملزمة لكل فرد مسلم موحد[21]، وهناك شيئان يمنعان الإنسان من إتباع الرسول إما الجهل وإما فساد العقل[22]، فالناكصون عن الإتباع عن جهل وتعصب وغلو وهوى، يجادلون في الحق بعدما تبين، يجتمعون على التهوين والانتقاص من مذهب السلف، مختلفون في الكتاب، مخالفون في الكتاب، متفقون على مخالفة الكتاب[23]، ويقول أبو المظفر: الله تعالى أمر خلقه بلزوم الجماعة، ونهاهم عن الفرقة، وندبهم إلى الإتباع، وحثهم عليه، وذم الابتداع، وأوعدهم عليه، وذلك بيّنه في كتابه وسنة

رسوله، قال الله تعالى: ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا﴾ (سورة آل عمران، الآية: 103)، وقال تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ ﴾ (سورة الشورى، الآية: 13)، وقال تعالى: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ (سورة الأنعام، الآية: 153)، وأمر الله تعالى بإتباع النبي ﷺ في آيات كثيرة من كتابه الكريم، وقد وردت الأحاديث حاثة على لزوم سنته واجتناب كل بدعة.[24]

4. التوحيد أصلا وامتدادا (Stretching and foundation monotheism)

يجمع الباحثون أن الظاهرة الدينية ترجع في نشأتها في نفوس البشر إلى قانون السببية causality والغائية teleology، وهذان القانونان إذا أحسن فهمهما أديا بالضرورة إلى الإيمان بالتوحيد والخلود، ويشير القانون الأول إلى أن وجود العالم ووجود الإنسان لا يمكن تفسيرهما إلا بالرجوع إلى خالق المخلوقات، وهو الله سبحانه وتعالى، أما قانون الغائية فهو يشير إلى أن كل شيء منظم متسق متناسق لا يمكن أن ينشأ عن عشوائية أو صدفة وإنما تصدر عن منظم مدبر مريد ووحدة القوانين الطبيعية ووحدة تكوين الخلية الحية كلها دلائل على وحدانية الخالق سبحانه، ويحاول علماء الاجتماع الديني وعلماء الأديان البحث عن الصور الأولى لظاهرة التدين، إذ كان في الواقع آدم عليه السلام موحّدا على ملة الإسلام كما علمه ربه سبحانه وتعالى، وهو يمثل نشأة الجنس البشري، فقد ضل البشر بعد آدم عليه السلام، ولكنهم ما لبثوا أن ثار لديهم الشعور الديني لأنه شعور فطري[25].

ويقول الشوكاني أن الشرائع كلها اتفقت على إثبات التوحيد على كثرة عدد الرسل المرسلين وكثرة كتب الله عز وجل المنزلة على أنبيائه، فإنه أخرج ابن حيان والبيهقي بسندين حسنين من حديث أبي ذر: (أن الأنبياء مائة ألف وأربعة وعشرون ألفا وأن الكتب المنزلة مائة وأربعة كتب)، فالتوحيد هو دين العالم أوله وآخره وسابقه ولاحقه ومن خالف في ذلك فجعل لله عز وجل شريكا وعبد الأصنام فإنه كما أرشد إليه القرآن الكريم حكاية عنهم بقوله: ﴿ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى﴾ مقر بأنه إيمان بتلك الأوثان، وهو مناف للتوحيد والدين الحق، لأنه جعل الشريك وصلة إلى الرب سبحانه ووسيلة إلى التقريب إليه، وما ثبت في الصحيح: (أنهم كانوا يقولون لبيك لا شريك لك إلا شريك هو لك تملكه وما ملك).

وبالجملة فكتب الله عز وجل بأسرها ورسله جميعا متفقون على التوحيد والدعاء إليه ونفي الشرك بجميع أقسامه، وأما دعاء الأنبياء المتقدمين لموسى عليه الصلاة والسلام إلى التوحيد فقد تضمنت التوراة حكاية ما كانوا عليه من التوحيد والدعاء إليه ونفي الشرك، فإنها قد حكت ما وقع منهم من عند أبينا آدم ومن بعده من الأنبياء كنوح وإبراهيم ولوط وإسحاق وإسماعيل ويعقوب ويوسف إلى عند قيام موسى سلام الله عليهم أجمعين[26].

ويوضح أبو الفرج في المنتظم القصة التي تعبر على مدى تغلغل التوحيد في نفوس الأنبياء، وأنه هو

المطلوب من العباد لله وليس غير التوحيد (...ويقال انه التقى موسى وإبليس عند عقبة الطور، فقال يا إبليس لم لا تسجد لآدم، فقال كلا ما كنت لا أسجد لبشر يا موسى ادعيت التوحيد وأنا موحد ثم التفت إلى غيره وأنت قلت أرني فنظرت إلى الجبل فانا اصدق منك في التوحيد قال اسجد للغير ما سجدت من لم يتعلم التوحيد من إبليس فهو زنديق يا موسى كلما ازداد محبة لغيري ازددت له عشقا...).[27]

أن هذه الفقرة إنما تدل على أن التوحيد ليس برسالة محمد ﷺ فقط إنما رسالة جميع الرسل والأنبياء، ولقد جاء في معجم الاثنولوجيا والأنثربولوجيا[28] : نظرة الإسلام إلى أن دعوة التوحيد بدأت مع خلق الله تعالى لآدم ومع إبراهيم عليه الصلاة والسلام ثم تمر عبر موسى وعيسى عليهما الصلاة والسلام، لتصل في النهاية إلى محمد ﷺ خاتم الأنبياء، ويقودنا تاريخ الديانة اليهودية من عبادة رب موسى إلى ديانة توحيدية ليهوه، أعلنها في بابل إشيعاء الثاني ودون أن تظهر أية علاقة ضرورية بين التأكيد على الرؤية التوحيدية وتجسد المسيح تعد الكلمة النبوية اليهودية نموذج إله سيصبح نموذج أديان الكتاب الثلاثة سيتمثل البعد الكوني للدعوة إليه مع بولس في القرن الأول على خطى تعاليم المسيح، لقد اجتهد لامبير في إظهار أن الأساطير التي تستند إليها الأديان تشكل معا نصا واحدا قد يثبت تحليل من نوع تحاليل العميقة في المناسبة ذاتها أشير إلى تقارب ولو إشكالي بين أديان التوحيدية سامية قد ولدت قديما جدا من الفكر الديني السومري البابلي، وذلك الدين التوحيدي ذي المنشأ الهندو إيراني الذي هو تبرز معه صورة أهورا مزادا من تعدد للآلهة شديد الاصطباغ بالإثنوية، ويمثل النظرة الغربية فريقين هما[29]:

الفريق الأول: ويمثله النموذج التطوري evolutionary model خاصة أنصار نظرية التطور في خط مستقيم تصاعدي وهو اتجاه ساد الفكر الاثنولوجي والسوسيولوجي والانثربولوجي خلال القرن التاسع عشر في أوروبا حيث وجد العلماء التقدم العلمي في مجال الطبيعة ووصول العلماء إلى قوانين بصدد العلوم الطبيعية، هذا إلى إصدار دارون كتابه في أصل الأنواع origin of species هذه العوامل وغيرها رفعت الباحثين في مجال المجتمعات الإنسانية والنظم الاجتماعية إلى البحث حول أصول النظم الاجتماعية وإصدار قوانين عامة بصددها (دون أن تستند إلى دارسات مقارنة كافية أو إلى أساس منهجي قديم)، ويذهب أنصار هذا الاتجاه التطوري إلى أن الدين بدأ في شكل الإيمان بالخرافات وبمظاهر وثنية ثم أخذ الإنسان يترقى في عقائده الدينية على مدى الأجيال مع اتساع معارفه ونمو مواهب ثقافية لديه، حتى وصل إلى قمة الديانات وهي ديانة التوحيد، تماما كما حدث بالنسبة للعلوم والفنون والتكنولوجيا، وقد تطرق بعض الباحثين خاصة من المستشرقين حيث زعموا أن عقيدة التوحيد وليدة عقل خاص هو ذلك العقل الذي ينتمي إلى الجنس السامي، وهذا زعم خاطئ ذلك لأن عقيدة التوحيد في شكلها الصحيح هي وليدة الفطرة السليمة في الإنسان عموما دعمها الله سبحانه وتعالى بالرسل والكتب لتوضح للناس الطريق المستقيم في علاقتهم بالله سبحانه وعلاقتهم بعضهم ببعض وفي مختلف جوانب الحياة الاجتماعية هذا إلى أن قضية الجنس السامي والجنس الآري لا تستند إلى أساس علمي لأنه لا يوجد جنس آري وآخر سامي ولكن توجد لغات آرية.

أما الفريق الثاني وهم الذين يقولون بنظرية فطرية التوحيد وأصالته الغريزية في نفس الإنسان، ويمثل هذا الفريق مجموعة من علماء الأجناس والأنثربولوجيا ونفس الإنسان مثل شريدر Schroeder الذي قام بدارسة ما أطلق عليه الأجناس الآرية القديمة وأثبت وجود عقيدة الإله الأعلى أو عقيدة التوحيد عند هذه الأجناس وبر كلمان brockelman الذي أثبت سيادة هذه العقيدة عند السامين القدماء قبل الإسلام .

وأيضا شلنج الذي قال في كتابه فلسفة الميثولوجيا أن فكرة ما عن التوحيد غامضة وغير واضحة كانت تسود الإنسانية الأولى ثم حدث انتقال إلى التعدد والشرك[30].

5. **تأثير التوحيد معتقدا** (Belief monotheism influence)

إن من طبيعة الإنسان أن يحس بالسعادة والشقاء إحساسا تشرك فيه الأبدان والأرواح على السواء تلك حكمة الله تعالى في خلق هذا الإنسان الذي كرمه الخالق الحكيم حين خلقه في أحسن تقويم، بدأ خلقه من طين الأرض، ونفخ فيه من روحه وميزه على سائر المخلوقات بخصائص تجل عن الحصر ونعم لا يحصيها العد، وجعله خليفة في الأرض وحمله أمانة إعمارها وإصلاحها، وحدد له فيها أجلا لا يزيد ولا ينقص، ثم يرجع بعد ذلك في اليوم الموعود إلى الله تعالى، خالقه ورازقه ومفيض النعم عليه، حيث يلقى جزاء ما عمل، ويصير إما إلى السعادة الخالدة ، أو الشقاء الأبدي.[31]

وللإنسان في هذه الحياة، حياة التكليف والابتلاء بين طريقين، طريق الهداية وطريق الغواية، وهما طريقان مختلفان بدءا ونهاية يؤول كل منهما بسالكه إلى المصير الذي يتناسب مع المنهج الذي التزمه والعمل الذي قدمه، فمن زكى نفسه بالتقوى فقد أفلح، ومن دنّسها بالمعاصي والكفر والإلحاد والشرك فقد خاب وخسر، وعلى هذين الطريقين يسير فريقان من البشر لا اتفاق بينهما في المنطلق وخط المسير، ولا تلاقي بينهما في الغاية ونهاية المصير، وكيف يستوي من يعبر الدروب النيرة الواضحة، ومن يختار المهالك ويتغلغل في أحشاء الظلام، بحيث يوجد فرق هائل وكبير بين جوهر الدعوة الإلهية ومبادئها وأهدافها ووسائلها وآثارها في حياة الفرد والجماعة والإنسانية في آفاقها الواسعة ومجالاتها الرحبة، وبين جوهر الدعوات الأرضية والتصورات الضيقة، والنظم الملتوية.

إن المحور لهذا الفرق كما يحدده المنهج القرآني هو عدم التسوية بين المنهجين المتضادّين والطريقين المتعارضين، وهي حقيقة تشير إلى التباين الكامل بين الوجود الحق الذي ينبغي أن يحرص عليه الإنسان ويتطلع إليه وبين الضياع الفارغ الذي يجب أن يحذر منه وينأى عنه إذا أراد إنسانيته أن تمارس وجودها الذاتي الصحيح على الأرض، إنها حقيقة تدركها العقول وتشعر بها النفوس وتستوعبها الضمائر، حقيقة فطرية بسيطة لا مجال للمكابرة فيها والتعامي عنها والغفلة عن إيحائها العميق ومدلولها البالغ[32].

إن توحيد الله تعالى والإيمان به هو الغذاء الوافي لقوى النفس في الإنسان، وهو المداد الخالد لحيويتها وتفتحها وإشراقها وليس على وجه الأرض قوة تكافئ قوته أو تدانيه في ضمان استقامة الفرد ويقظة ضميره ومتانة خلقه ثم تماسك المجتمع وتضامن أبنائه وتعاونهم على الخير والبر، وسرّ ذلك أن الإنسان يساق من

باطنه لا من ظاهره، وليست أنظمة الأمم والجماعات مهما بلغت من دقة الأحكام ولا سلطان الحكومات والهيئات مهما بالغت في المراقبة والتنظيم بكافيتين وحدهما بمعزل عن عقيدة التوحيد لإقامة حياة فاضلة كريمة تحترم فيها الحقوق وتؤدى الواجبات على أكمل وجه مرضي، فإن الذي يقوم بواجبه رهبة من السوط أو خشية من العقاب، لا يلبث أن يسيطر عليه الإهمال متى اطمأن إلى أنه سينجو من العقاب ويفلت من قبضة القانون، ومن أجل هذا كان لابد من عقيدة في الحياة لتملأها بالخير والحق والصدق والاستقامة، بل إن الحياة بغير عقيدة ضياع وعبث وفراغ نفسي وخواء روحي وقلق دائم، و اضطراب مستمر وغرق في اللجج والمتاعب والأزمات قال الله تعالى: ﴿ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا ﴾ (سورة طه :الآيات: 123 ، 124 ، 125) وأيضا قال الله تعالى: ﴿ قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنْسَى وَكَذَلِكَ نَجْزِي مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِنْ بِآيَاتِ رَبِّهِ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَى ﴾ (سورة طه :الآية 126 ،127)[33].

إن عقيدة التوحيد ليست موجة عاطفة تهز القلوب وتثير المشاعر فحسب، بل هي تجسد القوة العقلية والقوة الوجدانية معا، تهدم وتبني، تهوي على جذوع الخرافة والوهم والشك بالحجة والعلم والمنطق، فتهدم آفة التقليد الأعمى الذي يغلق الفكر ويخنق الحرية ويشوه معالم الشخصية المتطلعة نحو المثل العليا وفي المنهج القرآني آيات كثيرة تحض على التأمل والتدبير والتفكير وتسوق العقل المدرك والبصيرة الواعية دلائل كثيرة على قدرة الله تعالى، ومشاهد متعددة من بديع صنعه، قال الله تعالى: ﴿ وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴾ (سورة الذاريات الآية 20 ،21)، وأيضا قال تعالى: ﴿ سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾ (سورة فصلت الآية 53)[34].

إن عقيدة التوحيد حين تهدم كل زيف في فكر الإنسان وضميره وروحه تبني صروح المثل الرفيعة الطيّبة التي تجعل من الإنسان سوي السلوك والتفكير، طاهر الضمير، طيب السريرة، يقظ البصيرة، يستعمل طاقته الفكرية في وظيفتها الصحيحة المجدية، فينظر ويتأمل في هذا الكون ليتعرف على مظاهر عظمة الله تعالى، وجليل حكمته، ونفوذ قدرته، وشمول علمه، وتفرده بالخلق والإبداع، قال الله تعالى: ﴿ قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُمْ بِوَاحِدَةٍ أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَى وَفُرَادَى ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِكُمْ مِنْ جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلا نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴾ (سورة سبأ: الآية 46)[35].

6. تأثير التوحيد سلوكا: (Behavior Monotheism influence)

إن التوحيد Monotheism أول عقيدة وأشهرها وحينئذ يكون السؤال: هل التوحيد نظر أم عمل، أي بصورة أخرى معتقد أم سلوك فقط، إن عقيدة التوحيد هي الأساس النظري للعمل وعمل التوحيد هو توحيد الشعور ثم توحيد المجتمع ثم توحيد العالم في نظام واحد هو نظام الوحي، والتوحيد فعل من أفعال الشعور يضع ذاته من حيث هو شعور متوحد ومهيأ إلى تصور وحداني للعالم، إذن التوحيد ليس

عقيدة فحسب، أي تصورا نظريا فقط بل هو عملية توحيد، فالتوحيد فعل من أفعال الشعور تتوحد فيه قواه وأبعاده ومستوياته نحو ماهية واحدة ومطلقة وشاملة عامة ومجردة خالصة ومنزهة، وقد حاولت معظم الحركات الإصلاحية الحديثة من قبل إعطاء الأولوية للتوحيد العملي على التوحيد النظري وتحويل التوحيد إلى طاقة فعالة لتوحيد الشعور الفردي ولجمع شتات الأمة، ويقرن باسم التوحيد أحيانا اسم الصفات، فيكون اسم العلم هو علم التوحيد والصفات، لأن هذا الموضوع أشرف موضوعات العلم، ولأن الصفات هي لبّ عقيدة التوحيد ووصف الذات الكاملة وأوصافها المطلقة فالصفات تشير إلى الأسس النظرية للسلوك أي الإيديولوجية التي جاء بها الوحي من أجل تطبيقها في الحياة العملية والتي يجد فيها العالم نفسه في نظامه الأمثل المطابق للعقل والطبيعة [36].

ومن هذه العمليات التوحيدية نجد الصلاة والزكاة والصوم والحج، وهذه ليست على سبيل الحصر إنما على سبيل الذكر ونوضح واحدة منها فقط.

- **الصلاة** (Prayer)

فالصلاة أحد الجوانب العملية والسلوكية للفرد، ويساهم هذا الركن العظيم في تعديل سلوك الفرد Behavior Modification وهي أهم العبادات وأعلاها منزلة عند الله تعالى، وهي العبادة الوحيدة التي فرضها الله تعالى مشافهة بينه وبين رسوله محمد ﷺ في حادثة الإسراء والمعراج، وهي سلاح المؤمن الموحد الذي يقيه من الوقوع في المشكلات النفسية والسلوكيات المنحرفة، بل إنه يهرع إلى الصلاة كلما وقع في مشكلة كما كان هدي رسول الله ﷺ، فقد روى الإمام أبو داود في سننه عن حذيفة رضي الله عنه قال: (كان النبي ﷺ إذا حزبه أمر صلّى)، وقد وصف الله تعالى سلوك الإنسان بأنه هلوع، وهو الذي يفزع ويجزع من الشر، كما أنه يمنع الخير كالمال وغيره، فلا يصل به الآخرين، ثم جاء الاستثناء للمصلين المحافظين على أداء الصلوات بشكل مستمر، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا إِلَّا الْمُصَلِّينَ الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ﴾ (سورة المعا رج : الآيات: 19، 20، 21، 22)، وهي أعظم وقاية الله جل وعلا، فإذا أراد المسلم أن يكون في وقاية الله تعالى وذمته فعليه بأداء الصلاة، فقد روى الإمام الترمذي في سننه عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: (من صلّى الصبح فهو في ذمة الله فلا يتبعنكم الله بشيء من ذمته) .

وقد أمر الله تعالى العبد الموحّد بالاستعانة بالصلاة في كل شأن، فقال الله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴾ (سورة البقرة: الآية 153)[37]، والانضباط في الصلاة يحقق عدة أمور تتعلق بالسلوك الإنساني سواء الظاهري أو الباطني للإنسان الموحد لله تعالى، وأيضا تساهم في بناء المجتمع المثالي ومن جملة هذه الأمور نذكر ما يلي:

أولا: الناحية الفردية الذاتية [38]

✓ بناء الضمير الخلقي: لم يفرض الإسلام المبادئ الأخلاقية على السلوك الظاهري فقط، بل فرضها أيضا على السلوك الباطني لأن الحياة قسمان، قسم محسوس والآخر باطن غير محسوس، وأهمية الأخير لا يقل عن أهمية الأول، بل إن مظاهر الأول ما هي إلا انعكاس للأخير، ولهذا كانت الأخلاق الإسلامية مركزة على الحياة الباطنية في الدرجة الأولى، وصلاح هذه وتلك واستقامتهما هما الطريق إلى السعادة الإنسانية، وجمع الله تعالى بين الأمرين في قوله تعالى: ﴿ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ (سورة الأعراف: الآية 33)، والصلاة بما تمثله من تعويد على المراقبة لله تعالى والاتصال به تمنح هذه المبادئ الخلقية أساسا دينا شرعيا راسخا، فليس مرد الأخلاق إلى سطوة المجتمع الذي يمكن للمرء أن يتخفى عن أنظار أهله، ولا العقل الذي يزل به الهوى، وإنما أساس الخلق السامي الصلة بالله واستشعار مراقبته للعبد واطلاعه عليه، وإنها توجه الإنسان بكليّته إلى ربه، ظاهراً وباطناً جسماً وعقلاً وروحاً، إنها ليست مجرد حركات رياضية بالجسم، وليست مجرد توجه صوفي بالروح، فالصلاة الإسلامية تلخص فكرة الإسلام الأساسية عن الحياة، إن الإسلام يعترف بالإنسان جسماً وعقلاً وروحاً في كيان؛ ولا يفترض أن هناك تعارضاً بين نشاط هذه القوى المكونة في مجموعها للإنسان، ولا يحاول أن يكبت الجسم لتنطلق الروح، لأن هذا الكبت ليس ضرورياً لانطلاق الروح، ومن ثم يجعل عبادته الكبرى الصلاة مظهراً لنشاط قواه الثلاث وتوجهها إلى خالقها جميعاً في ترابط واتساق، يجعلها قياماً وركوعاً وسجوداً تحقيقاً لحركة الجسد، ويجعلها قراءة وتدبراً وتفكيراً في المعنى والمبنى تحقيقا لنشاط العقل؛ ويجعلها توجها واستسلاماً لله تعالى تحقيقا لنشاط الروح كلها في آن واحد، وإقامة الصلاة على هذا النحو تذكر بفكرة الإسلام كلها عن الحياة، وتحقق فكرة الإسلام كلها عن الحياة في كل ركعة وفي كل صلاة .

✓ الصلاة تعزز شعور الانضباط في الشخصية: الصلاة وسيلة تحرير الإنسان من كل الشهوات التي تستعبده وتحول دون فلاحه، فالصلاة وما فيها من إقرار لله تعالى بالربوبية، وما تشتمل عليه من خضوع لله تعالى، وقيام وركوع وسجود، هي ترويض للنفس، وإذلال لكبريائها وجعلها طيّعة لقبول الأوامر الإلهية والعمل بها، وبتقويم الانضباط السلوكي في الإسلام، بأن يعي الإنسان مسؤوليته عن تصرفاته أمام الله تعالى، ويعي اطّلاع الله عز وجل عليه إذا توفرت الشخصية الموحدة لله تعالى على شحنتين من الوعي والشعور، أحدهما طويل على مدى العمر، والشحنة الثانية مجموعة المفاهيم والمشاعر التي تشكل النظرة إلى الكون والحياة، والتي يسجّلها الإنسان وينمّيها ويرسّخها في شخصيته، فالشحنة الأولى تجعله دون شك يعيش روح المسؤولية، والشحنة الثانية هي مجموعة المفاهيم والمشاعر التي تقدمها الصلاة اليومية، وإذا توفر للإنسان هاتين الشحنتين فإنه سيعيش روح المسؤولية والخشية من الله تعالى على شكل ملكة في نفسه وطابع في شخصيته وسيرافق تصرفاته شعور الانضباط والوعي.

ثانيا: الناحية الاجتماعية[39]:

➢ إثارة التنافس على الخير: بحيث قامت الدراسات في علم النفس الاجتماعي تبحث في أثر الجماعة على الفرد في سلوكه، وقد وجدت أن وجود الفرد في الجماعة أدعى للنشاط والتنافس مما لو كان الإنسان بمفرده، وعلى هذا تكون صلاه الجماعة ميدانا لزيادة التنافس والنشاط في عمل الخيرات واجتناب الآثام مما يؤدي في النهاية إلى استقرار المجتمع جراء سلوك هذه الجماعة.

➢ تعزيز قيمة المساواة بين الأفراد: تذكر صلاة الجماعة المسلم بتعاليم الإسلام في العلاقات، فهي ممارسة فعلية تعمّق في نفسه معانيها وتروّضه على الالتزام بها، فالصلاة تجمع الفرد بالفرد والجماعة بالجماعة ليكونوا وحدة في الفكر والهدف والسلوك وتعوّد صلاة الفرد والجماعة على النظام وتتجلى هذه الميزة في المجتمع المسلم من خلال صلاة الجماعة بما فيها من تنظيم للصفوف ومتابعة المأمومين للإمام في اليوم خمس صلوات مفروضة.

➢ الشعور بالأمن الجماعي: إن الصلاة فريضة تؤدي أساسا في المسجد، والمسجد مجتمع صغير يمثل القلب النابض للمجتمع الكبير، حيث يؤمّن الفرد والمجتمع من خلال فعل متكرر في اليوم الواحد وذلك طول أيام العمر، إن هذا التلاقي لا يمكن أن يكون دون أثر نفسي واجتماعي، فالمسجد يبث معاني التراحم والتآخي بين المصلّين وشيوع الخلق الفاضل في المجتمع.

➢ اكتساب الأخلاق بالمحاكاة: فصلاة الجماعة بما فيها من صغير وكبير وجاهل وعالم تعد مجالا صالحا للتقليد والمحاكاة، حيث أن كل إنسان بفطرته يقلّد ويحاكي من هو أحسن منه في أي ميدان من ميادين الحياة، ومن هذا المنطلق تكون صلاة الجماعة مجالا ومتسعا لتقليد الصغير للكبير والجاهل للعالم.

7. خاتمة

لقد نظّم الوحي منهج السلوك الذي يتبعه الإنسان في حياته ليحقق الغاية من وجوده على أكمل وجه، سواء كان هذا السلوك عبادة يتصل من خلالها بخالقه، أو تعاملا بينه وبين الآخرين من حوله من الناس، أو سعيا في الأرض وتسخيرا لما فيها لمصالحه[40]، وإخضاع دوافعه لمحبة الله تعالى واتّباع أوامره، وترك نواهيه، فالدين يقوم على إرضاء النزعات الإنسانية ويجمع بينها ويوجهها إلى الخير والتسامي، فيوجّه الدافع الجنسي إلى إرضاء الله تعالى وحفظ الأنساب والأعراض وإنجاب النسل الصالح، وتحقيق السكينة والمودة والرحمة بين الزوجين، كما يوجب حب المال وجمعه إلى ضرورة إنفاق قسم منه على الفقراء، وينفق الباقي على أولاده وأهله ليكون له في ذلك ثوابهم وأجرهم، وعلى هذا تقاس بقية النزعات، ولاشك أن وجود عقيدة واضحة شاغلة لذهن الفرد لتحقيقها أمر يترتب عنه أرقى أنواع التكامل البشري الخلقي الذي من شأنه إثراء النفس، وفي هذا ما يمكن الذات من التمسك بالعقيدة والقدرة على تنظيم جميع شؤون الحياة الفردية والاجتماعية والإنسانية مع القدرة على فهم واستيعاب مشكلات الكون الكبرى من حياة وموت .....الخ وفي هذا ما يجعل المجتمع متناسقا متكاملا[41]، ولذلك نجد أنه من أهم أغراض العقيدة إيقاظ نشاط المؤمن وتحفيز همّته وشحذ مواهبه للنهوض بواقعه وواقع أمّته للرجوع إلى الله تعالى واستهداف رضاه في كل شيء يقوم بعمله المؤمن، يؤيد ذلك ما جاء في قول الحق تبارك وتعالى: ﴿ قُلْ إِنَّ

صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ (سورة الأنعام: الآية 162) وعدم الاكتفاء بالاقتناع العقلي ولا بالسرد العلمي الجاف الخالي من العاطفة، فلا بد من إثارة الانفعالات، فالله جل جلاله يأمر بالخوف ويمدح الخائف من الله سبحانه ﴿تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ ﴾ (سورة السجدة :الآية 16)، ويقول ابن تيمية وليس صلاح الإنسان في مجرد أن يعلم الحق، دون ألا يحبه ويريده ويتبعه، كما أنه ليس سعادته في أن يكون عالما بالله تعالى، مقرًا بما يستحقه، دون أن يكون محبًا لله تعالى، عابدًا لله تعالى، مطيعًا لله تعالى، بل أشد الناس عذابًا يوم القيامة عالم لم ينفعه الله تعالى بعلمه، فإذا علم الإنسان الحق وأبغضه وعاداه، كان مستحقًا من غضب الله تعالى وعقابه، ما لا يستحقه من ليس كذلك، كما أن من كان قاصدًا للحق طالبًا له، وهو جاهل بالمطلوب وطريقه، كان فيه من الضلال، وكان مستحقًا من اللعنة، التي هي البعد عن رحمة الله تعالى ما لا يستحقه من ليس مثله، ولهذا أمرنا الله تعالى أن نقول: ﴿ اهدِنَا الصِّرَاطَ المُستَقِيمَ. صِرَاطَ الَّذِينَ أَنعَمتَ عَلَيهِمْ غَيرِ المَغضُوبِ عَلَيهِمْ وَلاَ الضَّالِّينَ﴾ (سورة الفاتحة : الآية 6، 7)[42].

فإذا اعتقد الإنسان التوحيد الصحيح موافقا لكتاب الله تعالى وسنة نبيّه ﷺ الصحيحة، صحت بذلك ممارساته وسلوكياته الدينية، وكان ذلك تحصيل حاصل، والعكس صحيح، فالشاهد هنا أن المعتقد هو المحرك الأساس لكل الممارسات الدينية الظاهرية والباطنية عموما، غير أننا يمكن استثناء شذوذا سلوك النفاق الذي يخالف القاعدة العامة.

النتائج والتوصيات:

– التوحيد هو مقصود كل الشرائع على كثرة الرسل وكثرة الكتب المنزلة.

– التوحيد يهدم الخرافة والوهم بالحجة والعلم والمنطق لأنه يجسّد القوة العقلية والقوة الوجدانية للنفس الإنسانية.

– توحيد الشعور يؤدي إلى توحيد المجتمع، والطاقة الأساسية لتوحيد الشعور وجمع الأمة تكمن في التوحيد.

– التوحيد يمثل الأسس النظرية للسلوك أي الإيديولوجية التي جاء بها الوحي من أجل تطبيقها في الحياة العملية.

– الحياة الفاضلة الكريمة التي تحترم فيها الحقوق وتؤدى الواجبات على أكمل وجه مرضي لا تقام إلا بالتوحيد.

– العمليات التوحيدية تتمثل في الشعائر التعبدية التي ينبغي أن تنتج آثارها الإيجابية، كما في الصلاة مثلا، فهي أساس: بناء الضمير الخلقي - اكتساب الأخلاق - الانضباط في الشخصية - إثارة التنافس على الخير - تعزيز قيمة المساواة بين الأفراد - الأمن الاجتماعي.

8. قائمة المصادر والمراجع:

- ابن الجوزي، ع، 1358هـ، *المنتظم في تاريخ الملوك والأمم*، ط1، بيروت، لبنان، دار صادر.
- ابن تيمية الحراني، أ، 1391هـ، *درء تعارض العقل والنقل*، تحقيق محمد رشاد سالم، [د. ط]، الرياض، السعودية، دار الكنوز الأدبية.
- ابن تيمية، أ، 1369هـ، *اقتضاء الصراط المستقيم مخالفة أصحاب الجحيم*، تحقيق محمد حامد الفقي، ط 2، القاهرة، مصر، مطبعة السنة المحمدية.
- ابن تيمية، أ، 1422هـ، *الإيمان الأوسط*، تحقيق أبو يحي محمود أبوسن، ط1، الرياض، السعودية، دار طيبة.
- ابن تيمية، أ، 2005م، *مجموع الفتاوى*، تحقيق أنور الباز، ط3، دار الوفاء.
- الألباني، م، 1416هـ، *تحريم آلات الطرب*، ط1، مكتبة الدليل.
- الألباني، م، 1986م، *التوسل أنواعه وأحكامه*، ب ط5، بيروت، لبنان ، المكتب الإسلامي.
- بونت، ب، وايزار، م، 2006م، *معجم الاثنولوجيا والأنثربولوجيا*، ترجمة مصباح الصمد، ط1، بيروت، لبنان، المؤسسة الجامعة لدارسات والنشر والتوزيع مجد.
- التميمي، أ، 1996م *فصول من كتاب الانتصار الأصحاب الحديث*، تحقيق محمد بن حسين بن حسن الجيزاني، ط1، المدينة المنورة، السعودية، مكتبة أضواء المنار.
- الثعالبي، ع، [د. ت]، *الجواهر الحسان في تفسير القرآن*، [د. ط]، بيروت، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات.
- جابر، ج، 1986م، *مدخل لدارسة السلوك الإنساني*، القاهرة، ط 4، مصر، دار النهضة العربية.
- حنفي، ح، [د. ت]، *من العقيدة إلى الثورة*، [د، ط]، القاهرة، جمهورية مصر العربية، مكتبة مدبولي.
- حوى، س، *الإسلام*، 2001م، ط4، القاهرة، دار السلام.
- الخشت، م، [د. ت]، *الدين والميتافيزيقا في فلسفة هيوم*، دار قباء، [د. ط]، [د. ب]، [د. د].
- خطاطبة، ع، 2007م، *المنفعة المترتبة على السّلوك الإنساني في السّنة النبويّة*، مقدم لمؤتمر السنّة النبوية في الدراسات المعاصرة، كلية الشريعة، جامعة اليرموك، إربد، الأردن.
- الخطيب، ع، 1979م، *لمحات في الثقافة الإسلامية*، ط 3، بيروت، لبنان، مؤسسة الرسالة.
- الرازي، م، 1400هـ، *المحصول في علم الأصول*، تحقيق طه جابر فياض العلواني، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، ط1، الرياض، السعودية.
- الرشدان، ع، 1999م، *علم اجتماع التربية*، [د. ط]، عمان، الأردن، دار الشروق.
- الزنيدي، ع، 1996م، *مصادر المعرفة في الفكر الديني والفلسفي*، الطائف، الرياض، ط1، السعودية، مكتبة المؤيد.
- السمالوطي، ت، [د. ت]، *الدين والبناء الاجتماعي*، [د. ط]، دار الشروق.
- الشهراني، ي، [د. ت]، *أثر عبادة الصلاة للوقاية من الجريمة*، إشراف محمد فضل مراد، رسالة ماجستير، [د. ط]، الرياض، السعودية.
- الشوكاني، 1984م، *إرشاد الثقات إلى اتفاق الشرائع على التوحيد والمعاد والنبوات*، تحقيق جماعة من العلماء، ط1، بيروت، لبنان، دار الكتب العلمية.
- الصنيع، ص، 2000 م، *التدين والصحة النفسية*، الإدارة العامة للثقافة، ط 1، [دب]، [د. د].
- عبد العال، ح، 1985م، *مقدمة في فلسفة التربية الإسلامية*، [د. ط]، الرياض، السعودية، دار عالم الكتب.

- العدوي، م، *دروس صوتية* http://www.islamweb.ne
- عيسى، أ، [د. ت]، *شرح قصيدة ابن القيم*، [د. ط]، [د. ب]، [د. د].
- الغزالي، م، [د.ت]، *إحياء علوم الدين*، [د. ط]، بيروت، دار المعرفة.
- غيث م، [د.ت]، *قاموس علم الاجتماع*، [د. ط]، الإسكندرية، دار المعرفة الجامعية.
- منصور، ع، وآخرون، 2002 م: *السلوك الإنساني بين التفسير الإسلامي وأسس علم النفس المعاصر*، [د. ط]، القاهرة، جمهورية مصر العربية، مكتبة الانجلو المصرية.
- النجار، ف، [د.ت]، *الحرب النفسية*، [د. ط]، [د. ب]، [د. د].
- يسري، م، 2003م، *معالم في أصول الدعوة*، فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية، ط1، الرياض، السعودية.
- sibony,D, 1992, les trois monothéismes juifs chrétiens musulmans entre leurs sources et leurs destins, , Paris, éditions du seuil.

9. الحواشي والإحالات:

1 - محمد عاطف غيث، [د. ت]، وانظر أيضا: جابر عبد الحميد جابر، 1986م .
2 - عبد الله الرشدان: 1999.
3 - محمد عاطف غيث: مرجع سابق. ص36 .
4 - عدنان مصطفى خطاطبة، 2007م .
5 - محمد بن محمد الغزالي، [د.ت].
6 - أحمد بن عبد الحليم بن تيمية الحراني أبو العباس، 1391 هـ.
7 - فهمي النجار، [د.ت].
8 - حسن إبراهيم عبد العال،1985م.
9 - أبو بكر جابر الجزائري، 1978 م.
10 - حسن إبراهيم عبد العال، مرجع سابق.
11 - سعيد حوى،2001م.
12 - سلسلة التفسير لمصطفى العدوي: أبو عبد الله مصطفى بن العدوى http://www.islamweb.ne
13 - محمد يسري، 2003م.
14 - محمد بن عمر بن الحسين الرازي، 1400هـ.
15 - أحمد بن عبد الحليم بن تيمية الحراني أبو العباس، 1369هـ .
16 - محمد يسري: مرجع سابق.
17 - ابن تيمية، 2005 م.
18 - عبد الرحمن بن محمد بن مخلوف الثعالبي، [د.ت].
19 - محمد ناصر الدين الألباني، 1416هـ.
20 - محمد ناصر الدين الألباني، 1986م.
21 - أحمد بن إبراهيم بن عيسى، [د.ت]. بتصرف.
22 - ابن تيمية: 2005م، مرجع سابق.
23 - محمد يسري، 2003م.
24 - أبو المظفر بن أحمد التميمي، 1996م
25 - نبيل توفيق السمالوطي: الدين والبناء الاجتماعي، [د.ت].

26 - محمد بن علي الشوكاني، 1984هـ .
27 - عبد الرحمن بن علي بن محمد بن الجوزي أبو الفرج، 1358هـ، تصرف يسير .
28 - بيار بونت ومشال ايزار، Daniel sibony 1992, 2006-
29 - نبيل توفيق السمالوطي، [د.ت].
30 - محمد عثمان الخشت [دت].
31 - عمر عودة الخطيب 1979م.
32 - المرجع نفسه.
33 - المرجع نفسه.
34 - المرجع نفسه.
35 - المرجع نفسه.
36 - حسن حنفي [د.ت].
37 - صالح بن إبراهيم بن عبد اللطيف الصنيع، 2000 م.
38 - يحي بن نصير السرحان الشهراني[د.ت]، بتصرف.
39 - المرجع نفسه.
40 - عبد الرحمن بن زيد الزنيدي 1996م، بتصرف يسير.
41 - عبد المجيد سيد أحمد منصور وآخرون، 2002 م.
42 - أحمد بن عبد الحكيم بن تيمية: الإيمان الأوسط، تحقيق أبو يحي محمود أبوسن، دار طيبة، الرياض، ط1، 1422هـ، ص 130.